نقد مرجعية المكان في تأويل القصائد الطوال المشهورات
(أنموذجاً)

أ.م. د. باسم إدريس قاسم
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب

المستخلص

يشكل المكان ركيزة أساسية في الشعر الجاهلي وتلفت أسماء الأماكن الكثيرة جداً فيه نظر المتأمّل له ولجماليته وتثير حيرته وتساؤله في طبيعة وجودها وماهيّتها؛ هل وجودها هذا من طبيعة جغرافية محضة لتبيان الأماكن والديار التي كان يسكنها الشعراء الجاهليون أو ممدوحوهم أو حبيباتهم أو غيرهم؟ كما أفاد منه بذلك واعتمد عليه الجغرافيون والبلدانيون العرب فيما بعد وأسسوا عليه جغرافية بلاد العرب ومواضع البلدان وعوّلوا عليه مستنداً ومرجعية وعماداً في تحديد الأماكن والمواضع وتعيين مواقعها. أم أن هذا الوجود من طبيعة جغرافية شعرية تأخذ من جغرافية المكان الواقعي قسطاً وتأخذ قسطاً من المعنى الشعري وخصوصية الشعر واعتبار كون المكان فيه ومن موضوع القصيدة ومناسبتها؟ أم هو من طبيعة شعرية رمزية محضة ولا أساس له من الوجود الجغرافي الواقعي؟

المقدمة:

إنَّ أوّل المتأوّلون هذا الشعر الذي يحتمل التأويلات المتعددة وهي سمة من خصوصية الشعر العظيم. فقد أوّله بالأول من هذه التأويلات الشرّاح القدماء فأخذه عنهم الجغرافيون العرب الذين لم يروا تلك الأماكن القديمة التي يذكرها الشعراء الجاهليون فكان كلام هؤلاء الشراح مصدرهم في تحديد الأماكن والبقاع. وأوّله بالتأويلات الثلاثة الدارسون المحدثون من آخذٍ بالأول أو معتقدٍ بالثاني أو مرجح للثالث كما سأعرض لذلك في هذا البحث. وخاصيّة كثرة الأماكن والاهتمام الجغرافي الملحوظ بالطبيعة العربية في الشعر الجاهلي سمة ملحمية في هذا الشعر كما أكّد ذلك الفيلسوف الألماني هيغل بما يعطي خصوصية للشعب الذي أنتج هذا الشعر بمعاناة إنسانه من طبيعة جغرافية المكان أو بمحبته لهذه الجغرافية والطبيعة ممّا عبّر عنه الشعراء [١]. وقد كنت عرضت لذلك في دراسة سابقة [٢].

---

(١) ينظر: فكرة الجمال/هيغل ٢: ٢٤٨-٢٥٢. فن الشعر/هيغل ١: ١٣٩-١٤٠، ٢: ٢٠٩-٢١٠.

(٢) ينظر: الشاعر والوجود في عصر ما قبل الإسلام/باسم إدريس: ١١٩-١٤٧.

لقد تعرّض الشرّاح الأوائل من علمائنا العرب القدماء الأجلاء لتأويل هذا الشعر لاسيّما تأويل وتحديد الأماكن والمواضع الواردة فيه إمّا وفق مرجعياتهم اللغوية أو رحلاتهم العلمية إلى قبائل الشعراء أو بغير ذلك من المرجعيات التي اعتمدت في الأغلب من ذلك على التخمين في المعرفة بالأماكن؛ لأن الزمن الذي يفصل بين هؤلاء العلماء والشعراء الجاهليين قائلي هذا الشعر بعيد يقارب المائتي سنة فأكثر، تغيّرت فيه شتى جوانب الحياة العربية ومنها أماكن ومواضع سكنى القبائل التي كانت في زمن أولئك الشعراء بدوية متنقلة في الجزيرة فأصبحت بعد الإسلام حضرية تقطن الأمصار الإسلامية الشاسعة لا سيما في العصر العباسي عصر العلماء والشراح وتأويل هذا الشعر، فلم تعد المواضع التي ذكرها الشعراء الجاهليون معروفة ومحدّدة. وقد كان بعض هذه الأماكن في أكثر من موضع بالاسم نفسه،وهو ما أربك العلماء والشراح في تخمين أي المواضع منها هو مقصود الشاعر في قصيدته. ولأن العلماء والشراح المؤوّلين لهذا الشعر كانوا يجلّون السابقين عليهم من الخطأ تواتر اتفاقهم وتأكيدهم على ما ذكره الأسبقون كأنه حقيقة لا ريب فيها آخذاً الآخر عن الأول واللاحق عن السابق إلى يومنا هذا عند دارسينا المحدثين والمعاصرين الذين لم يشكّوا في صحة تحديد وتأويل الشراح الأوائل للأماكن والمواضع في الشعر الجاهلي. وكذلك فعل من قبل البلدانيون والجغرافيون والرّحالة العرب في تحديد هذه الأماكن بعيدة الزمن عنهم باعتمادهم على أقوال أولئك العلماء أيضاً من اللغويين والنحويين والنقاد ورواة الأشعار والأخبار والسير وغيرهم، وتصريحهم بذلك وعدّوا تلك الأقوال حقائق لم يناقشوا فيها ولا محّصوها لبعد أزمنتهم أيضاً عن زمن تلك الأماكن الذي ذكرها الشعراء؛ يقول ياقوت الحموي وهو من أشهرهم في مرجعية الأماكن التي ذكرها في كتابه الشهير المرجع (معجم البلدان): " على أنه قد صنّف المتقدمون في أسماء الأماكن كتباً وبهم اقتدينا وبهم اهتدينا، وهي صنفان: منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة، ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار واقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار... وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل الأدب، وهم أبو سعيد الأصمعي ... وأبو عبيد السكوني، والحسن بن أحمد الهمداني... وأبو سعيد السيرافي ... وأبو زياد الكلابي ... وهشام بن محمد الكلبي ... وأبو القاسم الزمخشري ...وأبو عبيد البكري ... وهذه الكتب المدوّنة في هذا الباب التي نقلت منها. ثم نقلت من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب والمحدّثين ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهدته في أسفاري وحصّلته في تطوافي أضعاف ذلك "[1]. فكتب أهل الأدب واللغة ورواة السير والأخبار معتمد البلدانيين الأول في تحديد الأماكن البدوية في

(١) معجم البلدان ١: ١٢.١١

جزيرة العرب، وهو ينقل كما يقول عنهم وعن غيرهم دون أن يمحّص الصحيح من الخطأ إن لم يكن له علم بتلك الأماكن[١]. ورأي ياقوت الأدبي والنقدي في الأماكن التي يذكرها الشعراء الجاهليون وغيرهم في شعرهم وهو صاحب المعجم الآخر الشهير (معجم الأدباء) أنها لتحلية الشعر فقط وزينة وليس لغرض أعمق من ذلك يقصده الشاعر بذكرها فهي: " معتمد الشاعر في تحلية جيد شعره بذكرها وتزيين عقود لآليء نظمه بشذرها. فإن الشعر لا يروق ونفس السامع لا تشوق حتى يذكر حاجر وزرود والدهناء وهبود ويتحنّن إلى رمال رضوى " [٢]. وليس الأمر على ما ذكر من البساطة والوظيفة والوضوح لهذه الأماكن في الشعر الجاهلي وهو نفسه الذي ذكر في الصفحة نفسها أهمية معرفة المكان وجوهرّيته وذكره في معرفة وتدقيق صحة نسبة بعض القصائد للشعراء؛ فقد استدلّ العلماء المدققون بالمكان كما قال على أن القصيدة المنسوبة لتأبط شراً والتي فيها البيت:

إنّ بالشِّعب الذي دون سَلْعٍ لقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

ليست له؛ لأن سلعاً ليس دونه شعب [٣].

إنَّ هذه الأماكن برأي الباحث باتصال وثيق ورمزية شعرية غاية في الدقة وقناع غامض لمناسبة القصيدة وشخصيتها الرئيسة وموضوعها الأساس الذي يتناوله الشاعر.ولذلك كله أريد في هذا البحث أن أعرض لتمحيص مرجعية وتحديد هذه الأماكن التي حدّدها علماؤنا القدامى ليس انطلاقاً من التسليم بأقوالهم تلك كما فعل خَلَفهم من بعدهم والبلدانيون والدارسون المحدثون ولكن انطلاقاً من معطيات الشعر نفسه . فهو الوثيقة الأوثق . في معانيه ومناسبة قوله ومقصد قائله منه وماهيّة المقول فيه إلى غير ذلك من الإفادة من التأويل المعاصر ومفاتيحه الجديدة للولوج إلى قصائده وفهمها، وإسهام ذلك كله في معرفة حقيقة المكان الذي يتحدث عنه الشاعر ومقصدّيته منه وتحديده بمقاربة أدق من مقاربة التأويل القديم له. وقد اخترت القصائد الطوال المشهورات أنموذجاً تمثّل غيرها من قصائد الشعر الجاهلي الأخرى، ولم أسمّها بالاسم المشهور لها وهو (المعلقات) لأني من المنكرين لهذا الاسم كما فصّلت في ذلك بدراسة خاصة [٤].

من إشكاليات تحديد المكان وتأويله عند علمائنا القدامى قول لبيد في مطلع مطولته [٥]:

---

(١) ينظر: م. ن ١: ١٢.١٣

(٢) م. ن ١: ٩

(٣) ينظر: م. ن: ص. ن

(٤) ينظر: جدل الشعر والنحو – دراسة في شروح القصائد العشر الطوال: ١١٣، ١٢٩–١٣١، ١٤٢–١٤٣، ١٥٣، ١٦٣، ٣٠٤.

(٥) شرح ديوان لبيد/احسان عباس: ٢٩٧.

عَفَتِ الدِّيارُ مَحلُّها فَمُقامُها بمِنىً تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها

فقد حدد الأصمعي موضع (منى) المذكور في هذا البيت بما تفرّد به وحده وما هو غير معروف ومستغرب بأنه منى طخفة جبل بحمى ضريّة من عالية نجد وهي بلاد بني عامر قوم لبيد الشاعر، وأنه ليس منى مكة المشهور [١]. وقال غير الأصمعي إنه منى مكة نفسه [٢] لأنه لا يعرف غيره في بلاد العرب أولاً وثانياً لأنه لا مبرّر لتجريد منى مكة المشهور من مقصدية الشاعر الذي أطلق الأسم ليعرف أنه المشهور وإسباغه على غيره مما لا يعرف؟! وما حدا بالأصمعي برأي الباحث إلى استبعاد أن يكون مقصد الشاعر منى مكة بعده عن بلاد بني عامر قوم لبيد،ويفترض علماؤنا القدماء كالأصمعي ومن قبله شيخه أبو عمرو بن العلاء في تأويلهم للأشعار القديمة أن تكون أطلال الحبيبة التي يتحدث عنها الشاعر كلبيد هنا ضمن أماكن حلّ وارتحال قبيلته وحماها وألاّ تخرج عن أن تكون في بلاد الشاعر [٣]، في حين أن الدراسة الحديثة لهذا الشعر ولا سيما لرمزّيته المفعم بها والممّثلة لغموضه واستعصائه على الفهم تدلّنا على أن هذه الأماكن لا تتعلّق ولا تلزم أن تكون في بلاد الشاعر وضمن قبيلته ولكنها أماكن ومواضع تتصل بالشخصية التي يتحدث عنها الشاعر من ممدوح أو مهجوّ أو مرثي أو غيرهم الذي يلبسهم الشاعر قناع الحبيبة متحدثاً عنهم من خلالها كما أكدنا ذلك في دراسات سابقة [٤] وسنؤكده في هذا البحث. ولقد تبع كل الشرّاح والمؤولين القدماء مقالة الأصمعي هذه في بيت لبيد[٥]،وحدده بها الجغرافيون والبلدانيون العرب تبعاً لذلك أيضاً [٦]، وأكدها الدارسون المحدثون والمعاصرون مجمعين [١].

---

(١) ينظر: شرح القصائد السبع/ابن الأنباري: ٥١٨. شرح القصائد التسع/النحاس ١: ٣٥٩. جمهرة أشعار العرب/القرشي ١: ٢٨٨. شرح المعلقات السبع/الزوزني: ١٧٦. شرح القصائد العشر/التبريزي: ٢٠١

(٢) ينظر: شرح القصائد السبع: ٥١٨. شرح القصائد التسع ١: ٣٥٩. شرح القصائد العشر: ٢٠١.

(٣) ينظر: معجم البلدان ١: ٢٢٣ـ٢٢٤ في رواية الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء شكّه في قصيدة المخبل السعدي لأن مكان أطلال الحبيبة ليس في بلاده، وحرفه نسبتها إلى طرفة بن العبد لأن الموضع في بلاده فهي أنسب له، ومتابعة الأصمعي له في ذلك كله وتأكيد نسبتها إلى طرفة، مع أنها مشهورة دون أدنى شك للمخبل عند كل الرواة وعدم رواج قولهما !

(٤) ينظر: ماهية أسماء النساء وشخصياتهن في شعر ما قبل الإسلام، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، المجلد (١١)، العدد (٤)، ٢٠٠٤ م: ٢١١.٢٢٧

(٥) ينظر: الشروح في هامش رقم (٩) السابق.

(٦) ينظر: بلاد العرب/الأصفهاني: ١٠٥. صفة جزيرة العرب/الهمداني: ٢٩١، ٣٤١. معجم ما استعجم/البكري ٤: ١٢٦٣. معجم البلدان ٥: ١٩٩

ولو عدنا إلى الشعر نفسه في قصيدة الشاعر، لأنه الوثيقة الأصدق والأوثق كما قلت من رواية الرواة وتخمين المخمّنين، نستقصي ماهيّة الأماكن مقصد الشاعر، ولو أخذنا بمبدأ أن الشعر يفسّر بعضه بعضاً ويحلّ بعضه لغز بعض كما قرّر ذلك نقادنا الأوائل القدماء أنفسهم وكما أفدت من ذلك في دراسات سابقة لي، ربّما ساعدنا ذلك في تحديد الأماكن بدقة أكبر. فهذا البيت المجمل مطلع مطوّلة لبيد الذي يتحدث فيه عن الحبيبة وأطلالها(عفت الديار...) تقابله بعد أبيات كثيرة الأبيات التي تفسّره وتفصّل فيما أجمله عن حبيبته (نَوار) وأطلالها بقوله: [٢]

بل ما تَذكَّرُ من نَوارَ وقد نَأَتْ وتقطّعَتْ أسبابُها ورمامُها
مُرِّيَّةٌ حلَّتْ بِفَيْدَ وجاورَتْ أهلَ الحجاز فأين منك مَرامُها؟
بِمَشارقِ الجبلين أو بِمُحَجَّرٍ فتضمَّنَتْها فَردةٌ فَرُخامها
فَصَوائِقٌ إن أيْمنَتْ فَمَظنَّةٌ منها وِحافُ القَهرِ او طِلخامُها

فقوله في البيت الثاني عن حبيبته نوار وديارها (حلّت) بفيد يقابل ويفسّر ويفصّل مطلع القصيدة المجمل بقوله (محَلُّها)، و (فيدٌ) المذكورة في البيت في الحجاز [٣]، وقوله هنا في البيت (وجاورت أهل الحجاز) يقابل ويفسّر مطلع القصيدة في قوله (فَمُقامُها بمنىً) لاسيّما مع ترجيح الباحث تعلّق (منىً) نحوياً في مطلع القصيدة بـ (مُقامُها) أي: مُقامُها بمنىً حيث تأبّد غَولها فرجامُها، أكثر من أرجحية تعلّقها بـ (تأبّد) التالي لها والذي يعطي معنى: تأبد بمنىً غَولُها فرجامها، مع جوازه نحوياً ومعنوياً [٤].فهذا البيت إذن (مرّية ...) يصرّح ويؤكد أن المقصود بمنىً في مطلع القصيدة هو منى مكة والحجاز كما صرّح الشاعر فيه، وليس كما دحض ذلك الأصمعي والشرّاح والبلدانيون وغيرهم متابعين له من أنه لا يقصد منى مكة بل يقصد غيره مما لا يعرفونه في بلاد العرب! ومما يدل أيضاً على أن الشاعر يقصد منى الحجاز أن أغلب الأماكن التي ذكرها في المطلع وفي هذه الأبيات للحبيبة في الحجاز وهي: الرّيّان ومحجِّر وفَردة والرُّخام وصُوائق والقَهر وطِلخام[٥].

---

(١) ينظر: جمهرة أشعار العرب ١: ٢٨٨ (الهامش). معلقات العرب/بدوي طبانة: ٢٠٧، شرح ديوان لبيد: ٢٩٧. نصوص من الشعر العربي قبل الإسلام/القيسي والجادر والحديثي: ١٩٢

(٢) شرح ديوان لبيد: ٣٠١.٣٠٢

(٣) ينظر: معجم البلدان ٤: ٢٨٢. شرح القصائد العشر: ٢١٣

(٤) ينظر: جدل الشعر والنحو: ٢٣٥.٢٣٧

(٥) ينظر: معجم البلدان ٣: ١١٠ـ١١١، ٤: ٢٤٨،٤٣٢، ٤١٨، ٥: ٦٠. م ع ترجيح أن (الغول) و (الرجام) يعنيان لغوياً أراضي الطلح والهضاب، وليسا اسمي مكانين كما أرادوا لهما أن يكونا.

ومما يدل على نقض فكرة الأصمعي من لزوم أن تكون الحبيبة من قوم الشاعر وديارها دياره وقول الشرّاح معه إنها من قومه تصريح الشاعر لبيد نفسه أنها (مُرّيّة) فهي إذن ليست من قوم لبيد كما أرادوا لها أن تكون بل من قوم آخرين [١]. ومُرّة أو مُرّ كما يمكن أن يكون من نسبه لها بقوله (مرّية) بفروع أنسابهم أغلب مساكنهم في الحجاز [٢]، وهذا ما يؤكد أيضاً أن منى المذكور في المطلع هو منى مكة والحجاز.

وحبيبة لبيد (نوار) المريّة هذه ليست حبيبة في التأويل المرجح عندنا وكما عرضت لهذه الفكرة في دراسة سابقة [٣]، بل هي اسم رمزي لشخصية القصيدة التي يتحدث عنها الشاعر ويخاطبها. ولم يصرّح لبيد للأسف في قصيدته كلها ولا نقادنا القدماء من المقصود بها، ولكن من الاسم الرمزي هذا (نوار) الذي معناه لغوياً المرأة المشاكسة النَّفور وما فيه أيضاً من معنى العداوة والشحناء والبغضاء (من نائرة) [٤] نرجح أنه المعنى الرمزي الذي أراده لبيد من إسباغ هذا الأسم على شخصية الخصم الذي قصده في مطوّلته والذي أوضح صورته العدائية المشاكسة المقنّعة عند لبيد بقناع الأنوثة في قوله مخاطباً له ومهدداً ومتوعّداً بالصريمة واعلان العداوة وعدم رضاه بالذل والمهانة والخضوع لأحد:[٥]

فاقطع لُبانة من تعرَّضَ وَصلُه ولَشَرُّ واصل خُلَّةٍ صَرَّامُها
واحبُ المُجاملَ بالجميلِ وصرمُهُ باقٍ إذا ضَلَعَتْ وزاغ قِوامُها
أو لم تكن تدري نوارُ بأنني وصَّال عَقدُ حبائلٍ صَرّامُها
تَرّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرَضها أو يرتبطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

ثم ما يلي ذلك من أبيات إلى آخر القصيدة يفخر بها لبيد بنفسه وقومه، وهي كما نرى أليق وأنسب بمخاطبة خصم أو صديق موشك على التغيّر وتبدّل الخلائق مع لبيد، ولذلك سمّاه (نوار) أكثر من مناسبته للغزل بأمرأة حبيبة كما لاحظ ذلك الدارسون لشعر لبيد [٦]. ومما يجدر ذكره هنا

(١) ينظر: شرح القصائد العشر: ٢١٢، ٢٤٠ (مع الهوامش).
(٢) ينظر: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة /عمر رضا كحالة ٣: ١٠٦٣-١٠٦٤، ١٠٧١-١٠٧٣.
(٣) ينظر: ماهية أسماء النساء: ٢١١.٢٢٧.
(٤) ينظر: لسان العرب/ابن منظور ٥: ٢٤٤ـ٢٤٥ مادة (نور). مفاتيح القصيدة الجاهلية/ د. عبد الله الفيفي: ٧٠.٧١.
(٥) شرح ديوان لبيد: ٣٠٣، ٣١٣.٣٢١.
(٦) ينظر: لبيد – ابن ربيعة العامري/يحيى الجبوري: ٣٤٩.٣٥٠

أن ديار بني عامر قوم لبيد قريبة جدّاً بل محاذية للحجاز[١]، وأنهم قاتلوا قريشاً المجاورين لهم بالحجاز في حربي الفجار الأول والثاني، والتي سميت كذلك لأنهم قاتلوا بعضهم في الأشهر الحرم. ولعل هذا ما أشار إليه لبيد رمزياً في الأطلال بقوله [٢]:

دِمَنٌ تجرَّمَ بعد عهد أَنيسِها حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُها وحَرامُها

فيكون الخصم المقصود وهو نوار المريّة بنو مرّة بن عبد مناة بن كنانة أو بنو مرَّة بن كعب ابن لؤي من قريش، لاسيّما أن سبب حرب الفجار الثاني هو البّراض بن قيس من عبد مناة ابن كنانة كنانة مكة. وتكون القصيدة قائمة على حرب الفجار الثاني التي شهدها لبيد وكان قائدها عمه أبو براء ملاعب الأسنة، فهو موضوعها الخفي المرجّح عند الباحث ومناسبة قولها التي لم يأذن بها أحد من الرواة. وقد تكون الحرب المقصودة معركة يوم الرَّقَم وغيرها التي كانت بقيادة عامر بن الطفيل ابن عم لبيد والتي كانت لبنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان على بنى عامر، وهؤلاء لهم نسب وصهر متداخل مع قريش وهم يسكنون الحجاز أيضاً [٣].

لقد أكره الأصمعي وتبعه الشرّاح والجغرافيون العرب هذه الأماكن (منى) و(الغول) و(الرِّجام) و (الرّيان) و (الجلهتان) وغيرها على أن تكون في بلاد لبيد لأن الحبيبة يجب أن تكون من قومه، وهذا ما يرى واضحاً في كتب البلدانيين التي تربط بين هذه الأماكن وقصيدة لبيد هذه لتدللّ على أنها ديار لبيد [٤]. في حين أن الدراسة النقدية الرمزية للقصيدة تثبت أن هذه الأماكن ليست في بلاد لبيد بل في بلاد خصمه الذي سمّاه (نوار) وهي بلاد الحجاز.

وهكذا يوصلنا تحرّي دقة المكان في القصيدة الجاهلية إلى ترجيح مناسبتها الخفية التي لم يذكرها الرواة، كما توصلنا معانيها وتأويلاتها وما صرّح به الشاعر في قصيدته إلى ترجيح المكان مقصد الشاعر. وبالتالي تضعّف التأويلات النقدية القديمة ويضعّف اعتماد البلدانيين والجغرافيين عليها في تحديد الأماكن ووجودها. ونحن مع البلدانيين والجغرافيين العرب في تحديد الأماكن القديمة لاسيّما في الشعر الجاهلي في دوّامة كبيرة لانخرج منها وذلك أننا إذا أردنا أن نعرف الأماكن التي يذكرها هؤلاء الشعراء أُحلنا إلى كتب البلدانيات فإذا جئناها نستفهم منها تحديد تلك الأماكن

---

(١) ينظر: م. ن: ٢٠.٢١

(٢) شرح ديوان لبيد: ٢٩٧

(٣) ينظر: جمهرة أنساب العرب/ ابن حزم الأندلسي: ١٢.١٣، لبيد ـ ابن ربيعة العامري: ١٩، ٣٦ـ٣٧، ١١٩ـ١٢٠، أيام العرب في الجاهلية/جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل: ٢٧٨، ٣٢٢.٣٣٠

(٤) ينظر: بلاد العرب: ١٠٤.١٠٦. معجم ما استعجم ٢: ٦٤٠، ٦٩٠، ٣: ١٠٠٩، ٤: ١٢٦٣. معجم البلدان ٢: ١٥٧، ٣: ٢٧.٢٨، ١١٠، ٤: ٢١٩.٢٢٠

والمواضع المذكورة في الأشعار نجدها تحلينا إلى الأشعار ذاتها مستدلّة بها على أنها أماكن ومواضع؟! فتكون هذه الكتب كمن فسّر الماء بعد الجهد بالماء. وهكذا بحلقة مفرغة ندور بين هذا الشعر وكتب الجغرافية العربية دون أن نصل إلى مبتغانا في التحديد العلمي الدقيق للأماكن اين هي بالتحديد؟! وفي هذا يقول أحد الباحثين العرب المحدثين الدارسين للشعر الجاهلي والمختصين به في مطوّلة الأعشى التي يمدح بها الأسود بن المنذر اللخمي أخا الملك النعمان بن المنذر: (١)

ما بكاءُ الكبير بالأطلال وسُؤالي فهل تردُ سؤالي؟
دِمنةٌ قفرةٌ تعاورها الصيفُ بريحينِ من صباً وشَمالِ
لاتَ هَنّا ذكرى جُبَيْرة أو من جاء منها بطائف الأهوالِ
حلَّ أهلي بطنَ الغميسِ فبادولى وحلّت عُلوّية بالسِّخالِ
ترتعي السَّفح فالكثيبَ فذا قارٍ فَرَوضَ القَطا فذاتَ الرِّئالِ
رُبَّ خَرقٍ من دونها يُخرسُ السَّفْرَ وميلٍ يُفضي إلى أَميالِ

يقول وهب رومية: " يضعنا الأعشى أمام إشكال كبير وتزيدنا كتب البلدان إشكالاً وارتباكاً؛ فنحن لا ندري كيف تحلّ صاحبته بـ (السخال) من نواحي اليمامة ثم ترتعي (ذا قار) وهو ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة؟ ثم نحن لا ندري كيف يجمع الأعشى بين هذه المواطن على تفرقها وابتعادها ... فبعضها في البحرين دون تخصيص كالكثيب وبعضها في اليمامة نفسها وبعضها الآخر في العراق قريب من الكوفة؟ ثم ما هذا البعد المزعوم بين مواطن أهل الأعشى في الغميس وبادولى؛ الأول من ديار قيس بن ثعلبة بقرب الريف، وبادولى موطن ببطن فلج من أرض اليمامة؟على أن في بادولى قولاً أخر جعلها موضعاً في سواد بغداد،وقولاً ثالثاً جعلها بين البصرة والكوفة، وموطن أهل جبيرة في السخال؟ " (٢).

وحقيقة ما قال وهب رومية فإننا إذا أردنا أن نحدّد هذه الأماكن التي ذكرها الأعشى لدياره وديار حبيبته من كتب البلدان والجغرافية العربية لم نظفر من ذلك بطائل بل سندخل دوّامة لن نخرج منها إلاّ بالحيرة والارتباك؛ لأن هؤلاء الجغرافيين والبلدانيين سيحيلوننا إلى الشاعر نفسه في الأغلب أو غيره ممن وردت أسماء هذه الأماكن في شعره،والشاعر أو غيره لم يصرّح لنا أين هي هذه الأماكن كأبيات الأعشى هذه، فنبقى في جدل وإحالة عقيمين بين الطرفين. والخلل الفادح علمياً لهؤلاء الجغرافيين ليس في اعتمادهم على الشعر بل في اعتمادهم على التأويل غير الدقيق لهذا

(١) ديوان الأعشى الكبير/محمد محمد حسين: ٣
(٢) الرحلة في القصيدة الجاهلية: ٢٥٤

الشعر أساساً في تحديد المواضع المجهولة؛ وذلك بعدّهم كما ذكرت سابقاً كل ما يذكره الشاعر من أسماء الأماكن ومنها أطلال الحبيبة في بلاده حصراً، لأن الحبيبة لن تكون إلاّ من قبيلته! وهكذا إذا أردنا أن نعرف المواضع التي ذكرها الأعشى في أبياته هذه فاجأنا الجغرافيون العرب الأوائل كالأصفهاني والهمداني والبكري وياقوت وغيرهم بأن الغميس وبادولى والسخال والسفح والكثيب وذاقار وروض القطا وذات الرئال كلها في ديار الأعشى وقبيلته بكر بن وائل مستمدين ذلك من شعر الأعشى نفسه في أبياته هذه كما صرّحوا بذلك [١]. ولذلك قالوا: " ديار بكر بن وائل من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة (في الكويت حالياً) إلى البحر فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت " [٢]. وهذا التحديد لديار بكر بن وائل مأخوذ من أشعار الشعراء كما نرى ذلك واضحاً في الأماكن التي ذكرها الأعشى فجعلوها اعتماداً على أبياته هذه من ديار بكر بن وائل! والبلدانيون لأخذ أحدهم عن الآخر دون تمحيص أو تدقيق أو تغيير أو اعتراض وهو منهج العلماء العرب في تمجيد الأسلاف وتنزيههم عن الخطأ يوهموننا بهذا الاتفاق والتواتر والاجماع أن ما يذكرونه علمي وثابت وحقيقي. فلو أننا رجعنا إلى متأخر هؤلاء البلدانيين وأكثرهم تدقيقاً وهو ياقوت الحموي الذي تجمّعت لديه خلاصة علوم الأوائل منهم نجده في هذه الأماكن التي ذكرها الأعشى في أبياته لا يعرف تحديدها العلمي الجغرافي بدقة؛ فهو يذكر (الغميس) ولا يعرف موضعه أين ويستشهد على وجوده ببيت الأعشى من هذه الأبيات [٣]، ويرجّح في تحديد موضع (بادولى) بأنه في سواد بغداد ونواحيها ويستشهد على ذلك ببيت الأعشى نفسه. وأين ديار الأعشى من سواد بغداد؟! ثم ينتقل بصيغة التضعيف (وقيل) أنه في اليمامة عن عدم اقتناع فيما يبدو مضطراً اعتماداً على أنها ديار الأعشى كما صرّح الأعشى نفسه في البيت،ولكن أين في اليمامة؟ لا يعرف تحديداً [٤]. وحدّد أيضاً (السِّخال) بأنه موضع في اليمامة مستشهداً على ذلك ببيت الأعشى أيضاً [٥] دون أن يحدّد مكانه لأنه لا يعرفه إلاّ من بيت الأعشى هذا واعتماداً على أنه في ديار حبيبة الأعشى كما صرّح الشاعر بذلك فلابدّ أن يكون باليمامة. وكذلك لم يحدّد علمياً بدقة أماكن (السفح) و (الكثيب) و (ذات الرئال)

(١) ينظر: بلاد العرب: ٣٠٨.٣٠٧. صفة جزيرة العرب: ٢٣٦. معجم ما استعجم ٣: ١٠٠٥، ١٠٤٢. معجم البلدان ١: ٣١٨، ٣: ٩٤، ١٩٦، ٢٢٤، ٤: ٢١٤، ٢٩٣، ٤٣٨

(٢) صفة جزيرة العرب: ٢٨٤

(٣) ينظر: معجم البلدان ٤: ٢١٤

(٤) ينظر: م. ن ١: ٣١٨، ٢: ٤٥٢

(٥) ينظر: م. ن ٣: ١٩٦

مكتفياً بأنها في اليمامة أو البحرين أو عدم تحديده للمكان [١]. وأما (ذو قار) فهو أشهر من أن يجهله من بلاد العراق ولكنه نسبه إلى ديار بكر بن وائل أيضاً [٢] اعتماداً على بيت الأعشى كما أكد ذلك البلدانيون قبل ياقوت فأخذه هو عنهم [٣]. وأما (روض القطا) فوجد من الشعراء من يجعله بالحجاز أو بطريقه ومنهم من يجعله بطريق الشام ومنهم من جعله بالعراق، فتعجب من ذلك قائلاً: " ولا أدري كيف هذا؟! إلاّ أني كذا وجدته، ولم أجد أحداً ذكر موضعه وبيّنه. ولعل القطا تكثر بالرياض فنسبت إليها"[٤] ثم يؤكد قوله هو بأنه في اليمامة[٥]. وقوله بذلك مأخوذ أيضاً عمّن سبقه من البلدانيين اعتماداً على بيت الأعشى وأنها دياره وديار حبيبته[٦].

وهكذا يتضح لنا أن تحديد الأماكن عند الجغرافيين والبلدانيين العرب لا يقوم على أساس علمي دقيق من معرفة موضع المكان بدقة بل على تأويلهم للشعر الواردة فيه هذه الأماكن وذلك باعتبار أن أي اسم لمكان يذكره الشاعر في القصيدة عنه او عن حبيبته وأطلالها ولم يحدّد مكانه فهو لابد في ديار الشاعر لا يتجاوزها إلى غيرها. في حين أن التأويل العلمي الأدق والمحتمل والحديث لهذا الشعر نفسه سيغيّر كل تلك الأمكنة ومواضعها التي حدّدها جزافاً الجغرافيون العرب القدماء ولن يؤمن ويوثق بعد بتحديداتهم تلك.

ولو عدنا إلى أبيات الأعشى السالفة نستنطقها بدقة وبتأويل حديث لنعرف ونستنتج منها مواضع الأماكن المذكورة فيها كما فعلنا ذلك مع لبيد لوجدنا أن الأعشى يمدح بهذه القصيدة الأسود بن المنذر اللخمي أخا الملك النعمان بن المنذر كما قال الرواة في مناسبة القصيدة وكما صرّح بذلك الأعشى من ذكر اسم الأسود وعطاياه وحروبه التي لا تتناسب إلاّ مع عطايا وحروب أمير كالأسود. وما (جبيرة) التي يذكر الأعشى أطلالها وديارها في مطلع القصيدة ويتغزل بها ويذكر بعد الأماكن بين بلاده وبلادها في التحليل والتأويل الحديث للشعر الجاهلي إلاّ الأسود نفسه ممدوح الأعشى في هذه القصيدة [٧] ومنتجعه ومأموله في سدّ حاجته وخلّته وتجاوز فقره وعوزه واستدراك شيخوخته

(١) ينظر: م. ن ٣: ١٠٩، ٢٢٤، ٤: ٤٣٨

(٢) ينظر: م. ن ٤: ٢٩٣

(٣) ينظر: بلاد العرب: ٣٠٧. صفة جزيرة العرب: ٢٣٦. معجم ما استعجم ٣: ١٠٤٢

(٤) معجم البلدان ٣: ٩٤.٩٣

(٥) ينظر: م. ن ٣: ٩٤

(٦) ينظر: بلاد العرب: ٣٠٨.٣٠٧. صفة جزيرة العرب: ٢٣٦. معجم ما استعجم ٣: ١٠٠٥

(٧) ينظر: الرحلة في القصيدة الجاهلية: ٢٥٥

وضعفه،ولذلك سمّاه فيما يرى الباحث (جبيرة)؛ لأنه سيجبر فقره وحاجته، ولذلك أيضاً افتتح الأعشى قصيدته بالتورية الرائعة في قوله:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي فهل تردّ سؤالي؟

مما لامه عليه ابن طباطبا الناقد وغيره [١] لأنهم لم يفهموا هذه التورية الخفية البديعة التي ارادها وتعمدّها الأعشى،والتي ظاهرها البكاء على أطلال الحبيبة وسؤالها وتمنّي إجابتها له، ومرماها البعيد الخفي المقصود مما وراء الكلمات الشكوى للأسود من بكاء شيخ كبير مثله من العوز والفقر وسؤاله العطاء واستفهامه هل سيردّ سؤاله فيخيبّه وهو الذي لا يردّ سائلاً؟. ودليل ذلك أنه حين ينتقل من الموضوعات الرمزية الممهدة للمديح إلى مباشرة المدح من أول بيت يمدحه فيه فما بعده إلى نهاية القصيدة يمدحه بما يناسب مطلع القصيدة هذا الرمزي من طلب العطاء والكرم، فيقول لناقته: [٢]

لا تَشَكَّي إليَّ وانتجعي الأسود أهلَ الندى وأهلَ الفِعالِ

والأعشى يمهّد لذلك بالصور الرمزية التي توجب على الأسود إكرامه؛ من خواء الديار وإقفارها، فالطلل وإقفاره رمز لفقره وحاجته، ومن بُعد الشقة والمسافة بينه وبين الأسود وقطعه لها على أهوالها وعلى الجوع والعطش لاسيّما في الصيف المجدب للديار كما نصّ على ذلك في الأطلال، بناقة قوية تشتكي إلى الأعشى على قوتها لعدم تحمّلها مشاق الرحلة إلى الأسود. هذه الناقة التي يشبهّها بحمار وحش مع أتانه الهزيلة من الجوع في الصيف المجدب أيضاً كالأطلال، مما يدل بجامع الجدب هذا بين الأطلال وصورة حمار الوحش على أنهما صورتان رمزيتان لمعنى واحد يريده الشاعر.وقد جعل الأعشى حمار الوحش هذا يشفق على أتانه وولدهما الذي فطمته الأتان عنها كرهاً وحزناً لعدم وجود الطعام. وما حمار الوحش وأتانه وولدهما كما هو واضح إلاّ صورة رمزية للأعشى الشيخ الكبير وزوجته وعياله، كما أن الأطلال المجدبة صورة رمزية لديار الأعشى. وهذه الصور الرمزية ونحوها في القصيدة ليوجب على الأمير الأسود إكرامه وسدّ عوزه وفقره وإغداق العطاء عليه، ولذلك كما قلت سماه الاسم الرمزي (جبيرة) ولذلك أيضاً تضعف الروايات الأخرى التي روى الرواة بها اسم المرأة بـ (قُتيلة) و (قبيلة) و (خُبيرة) وجعلوهنّ نساء حقيقيات [٣]؛ لأن هذه الأسماء لا تؤدي أي معنىً رمزي في القصيدة كما يؤديه اسم (جبيرة).

(١) ينظر: عيار الشعر: ١٢٢. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء/المرزباني: ٤٩

(٢) ديوان الأعشى: ٩

(٣) ينظر: جمهرة أشعار العرب ١: ٢٤٣

وإذا عرفنا ذلك كله من التأويل الحديث ورجعنا إلى أسماء الأماكن المذكورة سواء لديار الأعشى أو لديار جبيرة (الأسود) أمكننا أن ننقد كتب البلدانيين التي تحتّم أن تكون الأماكن التي يذكرها الشاعر للأطلال وغيرها في بلاد الشاعر ولذلك جعلوا كل الأماكن التي ذكرها الأعشى في ديار بكر بن وائل لاسيّما في اليمامة، في حين أن ديار جبيرة (الأسود) كما نصّ الشاعر نفسه بعيدة جداً عن بلاده وديارِه التي في اليمامة فهي في العراق قرب الحيرة مركز إمارة اللخميين وليست في ديار الأعشى. فديار الأعشى كما نصّ في قوله (حلّ أهلي بطن الغميس فبادولى) هي الغميس وبادولى، وكما ذكرت سابقاً لم يعرف البلدانيون تحديد موضع (الغميس) سوى أنه في اليمامة معتمدين بيت الأعشى هذا، وأما (بادولى) فقد رجّح ياقوت كما ذكرنا أنه في نواحي بغداد، وأين ديار الأعشى من نواحي بغداد؟! وإذا علمنا أن الغميس لغة من معانيه الشدّة وقلة الشرب والمنخفض الغائر والمجهول والمظلم [١]، ومن معاني بادولى القلة والضعف ... [٢] وكل ذلك يتناسب مع شكوى الأعشى من قفر دياره في الصيف في حديث الأطلال مقارنةً بديار جبيرة التي سيصفها بالحياة والنماء والخصب، عرفنا أن الأعشى قد لايقصد بالغميس وبادولى أسماء أماكن بعينها بل يريد وصفها بالشدة والقفر ففهمها النقاد العرب والبلدانيون على أنها أسماء مواضع وجعلوا لها وجوداً جغرافياً كما فعلوا مع المواضع الأخرى التي ذكرت في أبيات الأعشى كما سنرى ومع غير الأعشى وإن لم يستطيعوا تحديدها لأنها لا وجود لها جغرافياً. وأما ديار جبيرة (الأسود اللخمي) فقد قال الأعشى فيها (وحلّت علوية بالسخال ترتعي السفح فالكثيب فذاقار فروض القطا فذات الرئال) فقوله (علوية) أي في عالية نجد وهي العراق [٣] في الحيرة وغيرها من ملك اللخميين وأميرهم ممدوح الأعشى الأسود بن المنذر. وقد سبق في دراسة لي أن عرضت إلى اسم (العلياء) في بيت النابغة الذبياني: [٤]

يا دارَ مَيّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ أقوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأَبَدِ

(١) ينظر: اللسان ٦: ١٥٦.١٥٧ مادة (غمس).

(٢) ينظر: م. ن ١١: ٥٠ مادة (بدل).

(٣) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام/جواد علي ١: ١٨١

(٤) ديوان النابغة الذبياني/محمد أبو الفضل: ١٤

وقلت إنه يقصد بدار ميّة بالعلياء دار الملك النعمان بن المنذر في الحيرة من عالية نجد [١]. ومما يؤكد ذلك أيضاً قول الحارث بن حلّزة في هند التي هي الملك عمرو بن هند نفسه وديارها أو دياره في الحيرة: [٢]

وبِعَيْنَيْكَ أوقَدَتْ هِنْدٌ النارَ تُلْوي بها العَلْياءُ

وقولـه: [٣]

إذ أَحَلَّ العَلْياءَ قُبَّةَ مَيْسونَ فأدنى ديارها الخَلْصاءُ

فالأماكن التي ذكرها الأعشى حالّة فيها حبيبته جبيرة ونصَّ أنها في العلياء وهي (السخال والسفح والكثيب وذو قار وروض القطا وذات الرئال) ليست في اليمامة كما أكّد النقاد والجغرافيون العرب باعتمادهم على أن الشاعر يذكر دياره ولكنها في ديار الممدوح الأسود اللخمي في العراق (الراعي) لهذه البلاد والديار. وإذا كان الجغرافيون لم يحدّدوا مواضع هذه الأماكن بدقة في اليمامة ولم يعرفوها معرفة علمية بتعيينها وتحديدها جغرافياً فلأنها برأي الباحث ليست أسماء لمواضع وأماكن بل هي أوصاف لها جعلها النقاد والجغرافيون أسماء، عدا ذي قار المعروف موضعه في العراق (في مدينة الناصرية حالياً) قرب الحيرة. ويتضح ذلك مما انتهى إليه ياقوت الحموي بعد رغبته وجهده بلا طائل في تحديد موضع أحدها وهو (روض القطا)؛ فقال بأن الشعراء ذكروه في العراق وفي الحجاز وفي الشام وغيرها، ثم قال أخيراً محتاراً: "ولا أدري كيف هذا؟! ... ولم أجد أحداً ذكر موضعه وبيّنه، ولعل القطار تكثر بالرياض فنسب إليها"[٤]. فروض القطا إذن ليس اسماً لموضع بل وصف للمكان كثير القط، وكذلك (ذات الرئال) هو وصف للمكان الذي يكثر فيه فراخ النعام وهو معنى (الرئال) لغويا[٥] وليس اسماً لموضع ولذلك لم يستطع الجغرافيون تحديده. وقول الشاعر (بالسِّخال) ليس اسم موضع باليمامة كما قال الجغرافيون، وما أوهمهم بذلك توهّمهم تعلّق الباء منه في الظاهر بالفعل (حَلَّتْ) قبلها مما يوهم بأن المقصود حلّت بهذا المكان ومما يؤكد هذا التوهم مجيء ذلك في نهاية البيت. والباحث يرى أن هذه الباء متعلقة بالفعل التالي في البيت الذي يلي؛ أي (ترتعي بالسِّخال

(١) في بحث (فلسفة الصورة في شعر ما قبل الاسلام) مقبول للنشر في مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل.

(٢) ديوان الحارث بن حلزة/إميل يعقوب: ٢٠

(٣) م. ن: ٣٠

(٤) ينظر: معجم البلدان ٣: ٩٤

(٥) ينظر: م. ن ٣: ١٠٩. اللسان ١١: ٢٦٢.٢٦١ مادة (رأل).

السَّفح) لأن (السّخال) معناها لغوياً صغار الماعز والغنم [١] مما يتناسب مع ما ذكره من القطا وفراخ النعام، أي ترتعي سفوح جبال العراق بالماعز والغنم، ومن المعروف أن الماعز خاصةً يرتعي سفوح الجبال. وبهذا فإن (السفح) ليس اسماً لموضع في اليمامة كما حدّده الجغرافيون ولم يعيّنوا موضعه بل هو سفح الجبل بمعناه اللغوي. وكذلك هو (الكثيب) فهو المكان الرملي من التلال والسهول لغوياً[٢] وليس اسماً لموضع في البحرين كما ذكر الجغرافيون. ونلاحظ أن الأعشى قد ذكر ما ترعاه جبيرة أي ملك اللخميين على أهل الجبال في شمال العراق وعلى أهل السهول في الوسط والجنوب، وأن هذه الأماكن كلها خصبة ممرعة فيها الخير العميم والحياة الرغيدة المتمثلة رمزياً بكثرة صغار الماعز والخراف والقطا والنعام ليقارن بين كل ذلك وبين قفر وإجداب دياره التي رمز لها بالأطلال مما يبرّر به حاجته وعوزه وسؤاله وفقره إلى كرم الأسود أمير الحيرة.

وبهذا التحليل أيضاً يتأكد ضعف رواية من قال بأن القصيدة قيلت في مدح الأسود بن الأرقم الكندي[٣]؛ لأن هذه الأماكن كما ذكرنا وأخصّها ذو قار في العراق، والكندي نجديّ. فلاحظ كيف أن مرجعية المكان وتحديده وتعيينه يفيدون في المقاربة الأدق في تحديد مناسبة القصيدة ومن المقصود بها.

إنّ هذه الأماكن وأسماءها الرمزية التي يذكرها الشعراء الجاهليون لخدمة موضوعهم الأساس وبالصلة معه والترميز إليه لحظها أيضاً الدكتور عبد الله الفيفي وهو من أهالي السعودية وأقرب منّا إلى معرفة الأماكن التي يذكرها الشعراء الجاهليون الذين كانوا يسكنون بلاده قديماً. وهو وإن لم ينكر وجود هذه الأماكن التي يذكرها الشعراء جغرافياً بل يؤكد وجود البعض منها إلى الآن، إلاّ أنه يرى أننا يجب أن نفهم ورود هذه الأماكن وأسمائها في شعر أولئك الشعراء فهماً رمزياً إشارياً شعرياً؛ بما يوحيه لنا اشتقاق هذه الأسماء من معانٍ تصبّ في خدمة موضوع القصيدة الأساس، وليس فهماً جغرافياً محضاً منتقداً الجغرافيين العرب الذين يستقون من الشعر الأماكن ومواضعها وإرادة تحديدها منه، لأننا برأيه لا يجب أن نطلب من الشاعر الدقة والصحة والصدق في ذكر الأماكن وتحديدها ومواضعها بل نأخذ منه رمزية وشعرية ورود هذه الأماكن وصلتها بالموضوع الذي يطرقه الشاعر. هكذا حلّل الأماكن الواردة في مطوّلة امرئ القيس ومنها ما ورد في مطلعها وهي (سقط اللوى والدخول وحومل وتوضح والمقراة) التي أكد وجودها أثرياً وجغرافياً في بلاد نجد من العربية السعودية بعضها إلى اليوم ولكنه يفهمها رمزاً شعرياً؛ بأنها ترمز إلى حزن الشاعر بسبب (سقوط لواء) دولة

(١) ينظر: معجم البلدان ٣: ١٩٦. اللسان ١١: ٣٣٢ مادة (سخل).

(٢) ينظر: اللسان ١: ٧٠٢ مادة (كثب).

(٣) ينظر: جمهرة أشعار العرب ١: ٢٦٢.٢٦٣

كندة وانتهائها في حياته بسبب (الدَّخَل) أي الحقد والعداوة وما (يحمله) من ذلك أعداؤها لها، و (وضوح) حقّها في الملك والرياسة و (قِراها) أي إكرامها لرعاياها [١].

وكذلك رأى في أسماء أماكن مطلع مطوّلة الحارث بن حلّزة في قوله: [٢]

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أَسْماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ
بعد عهدٍ لها بِبُرقةِ شمّاءَ فأدنى ديارها الخَلْصاءُ
فالمُحَيّاةُ فالصِّفاحُ فأعناقُ فِتاقٍ فَعاذِبٌ فالوَفاءُ
فرياضُ القطا فأوديةُ الشُّربُبِ فالشُّعبتانِ فالأبلاءُ
لا أرى من عهدتُ فيها فأبكي اليومَ دَلْهاً وما يُحيرُ البُكاءُ

لما رآه الفيفي في اشتقاق أسماء هذه الأماكن واضحاً من معاني (بريق) الحق و (شمّه) أو ريحه ومن (خلوص) المودة وإزجاء (التحية) وإرادة (المصافحة) و (العناق) والتصالح وربء (الفتق) والصدع الذي حصل بين قوم الحارث وبين من يريدون التغّير عليهم ومعاداتهم، والعودة إلى (عذب) الوصل وإلى (الوفاء) وغير ذلك مما كان يسأل عنه (أسماء) المرأة الرمزية التي تدل على القبيلة الأخرى [٣].

في حين يؤكد الدكتور الفيفي حديثاً على وجود أماكن مطوّلة امرئ القيس جغرافياً وأثرياً في صميم دولة كندة في نجد نفاجؤ بابن عساكر قديماً يؤكد أن أمرأ القيس كان في أعمال دمشق وأن الأماكن التي ذكرها في المطّولة وهي (سقط اللوى والدخول وحومل وتوضح والمقراة) أماكن معروفة لديه بحوران ونواحيها من بلاد الشام [٤]! وإذا كانت هذه الأماكن كذلك فإن تحليل القصيدة سيختلف كثيراً عن تحليل الدكتور الفيفي لأن دولة كندة ليست في بلاد الشام! فماذا يقصد أمرؤ القيس إذن في قصيدته وما موضوعها الخفي لو كانت هذه الأماكن حقّاً في بلاد الشام؟! ألا نلاحظ ما يعطيه المكان ودراسته من دفقات وتأويلات شعرية جميلة ورائعة ومتعددة ومختلفة ومتنوعة باختلاف موضوع المكان وبتحديده وباشتقاقه وبغير ذلك من معطياته؟

---

(١) ينظر: مفاتيح القصيدة الجاهلية، نحو رؤية نقدية جديدة عبر المكتشفات الحديثة في الآثار والميثولوجيا: ٤٠.٤٨، ٢٠٩.٢١٤، ٢٣٦.

(٢) ديوان الحارث: ١٩.٢٠.

(٣) ينظر: مفاتيح القصيدة الجاهلية: ٤٦

(٤) نقلاً عن: مفاتيح القصيدة الجاهلية: ٢٣٦

وإذا كنّا ننتقد مؤوّلي الشعر الجاهلي القدماء والبلدانيين بأنهم يفهمون ما أراد به الشاعر المعنى اللغوي أو الرمزي من اسم المكان على أنه مكان محدّد ومعيّن فيجعلونه في بلاد الشاعر دون أن يكون لذلك أدنى صحة فإنهم على العكس من ذلك في أحيان أخرى يفهمون أسماء أماكن مشهورة وواضحة بالمعنى اللغوي الاشتقاقي محتارين في تحديد أماكنها أو يحدّدونها في غير المواضع المشهورة لها جزافاً واعتباطاً كما رأينا ذلك بتحديدهم لموضع (ذي قار) بأنه في بلاد الأعشى وديار قومه بكر بن وائل. فمن ذلك كلامهم وحيرتهم في مكان (الحِساء) من قول الحارث بن حلّزة في مطوّلته يتمدّح بغارات قومه على القبائل وحروبهم في أنحاء الجزيرة: (١)

هل عَلِمْتُم أيامَ يُنْتَهَبُ الناسُ غِواراً لِكل حَيٍّ عِواءُ
إذ رَفَعْنا الجِمالَ من سَعَفِ البحرين سَيْراً حَتى نَهاها الحِساءُ
ثُمَّ مِلْنا على تميمٍ فأَحْرَمْنا وفينا بناتُ مُرٍّ إماءُ

فقد أوّل كل الشراح المتقدمين (الحِساء) بالمعنى اللغوي الاشتقاقي وأن المقصود به ماء البحر الجاري أو الموضع الندّي أو رملة تحتها ماء أو البئر قريبة الماء. وقالوا في أحسن تأويل لهم إنه موضع ولم يحدّدوه، وحدّده بعضهم بأنه في ديار بني فزارة أو بني أسد(٢)، آخذاً أحدهم عن الآخر دون تدقيق. ثم أخذ تحديده هذا عنهم الجغرافيون والبلدانيون واحتاروا فيه فقالوا إنه غرب نجد في بلاد محارب أو بني عامر أو بني طيء أو فزارة أو أسد(٣). ثم تبعهم على ذلك الشراح المحدثون(٤). وما هو إلاّ (الأحساء) المشهورة قديماً وحديثاً بهذا الاسم، قديماً في البحرين وحديثاً في العربية السعودية، وقد قال فيه البلدانيون أنفسهم: " ثم ترجع إلى البحرين؛ فالاحساء منازل ودور لبني تميم"(٥). فهم يعرفون (الاحساء) ولا يعرفون (الحِساء) الذي ذكره الشاعر، فحدّدوه كما شاؤوا، وهو نفسه بدلالة سكنى تميم فيه الذين ذكرهم البلدانيون وذكرهم الشاعر وأن قومه أغاروا عليهم عندما وصلوا إليه فسبوا نساءهم.

---

(١) ديوان الحارث بن حلزة: ٢٨.٢٧

(٢) ينظر: شرح القصائد السبع: ٤٧١. شرح القصائد التسع ٢: ٥٧٥. شرح المعلقات السبع: ٣١٧ .٣١٨. شرح القصائد العشر: ٣٨٩

(٣) ينظر: بلاد العرب: ١٧٥، ٤٣٨. معجم ما استعجم ٢: ٤٤٦. معجم البلدان ٢: ٢٥٧

(٤) ينظر: معلقات العرب: ٢١٠. شرح المعلقات السبع: ٣١٧ (الهامش). شرح القصائد العشر: ٣٨٩ (الهامش). نصوص من الشعر العربي: ٤٠٦ (مع الهامش). ديوان الحارث بن حلزة: ٢٨ (الهامش).

(٥) صفة جزيرة العرب: ٢٥١. وينظر: بلاد العرب: ٣٢٥ (الهامش).٣٤٣،٣٢٦ (الهامش).

إنّ الرمزية في ذكر الشعراء لأسماء الأماكن تأخذ حيّزاً كبيراً في تأويل الشعر الجاهلي مما ذكرنا بعضاً منه فيما سلف، ولعل منه أيضاً تأويل (اليمين) في مطوّلة عمرو بن كلثوم في قوله: [١]

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمَّ عمروٍ وكان الكأْسُ مَجراها اليمينا
وما شَرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرو بصاحبكِ الذي لا تُصبحينا
وكأسٍ قد شربتُ ببعلبكٍّ وأخرى في دمشقَ وقاصرينا

فـ (اليمين) هنا رمز مكاني للمكانة نفسها عند عمرو بن هند، الذي سمّاه (أمّ عمرو) وجعله ساقية الخمر التي قصّ رواة الأشعار القصص الملفّقة عن شخصيتها لتكون امرأة حقيقية والتي حوّلت الكأس من اليمين وهي مكان ومكانة عمرو بن كلثوم وقومه التغلبيين المفترضة والواجبة والقديمة عند الملك عمرو بن هند، إلى اليسار ولعل المقصود به غريمه وخصمه الحارث بن حلّزة وقومه البكريين وتفضيلهم في السقيا [٢]. وهذا ما يفسّر ذكر الأماكن الرمزية الأخرى في بلاد الشام وهي (بعلبك ودمشق وقاصرين) التي يفتخر عمرو أنه شرب فيها الخمر عند الغساسنة ومكانه ومكانته عندهم (اليمين) وليس (اليسار). فكيف يفضّل عمرو بن هند عليه وعلى قومه من هم في اليسار، ويزدريهم هذا الإزدراء الذي ذكره عمرو في قوله للملك: [٣]

بِأَيِّ مشيئةٍ عمرو بن هندٍ تطيع بنا الوُشاة وتزدرينا

وهذا التأويل الرمزي للمكان يتضح في انتقال عمرو في قصيدته من هذه الرمزية الخمرية إلى المباشرة بالرمز المكاني نفسه فيها أيضاً مما يفسّر رمزية المكان بالخمرة، لأن القصيدة يفسّر بعضها بعضاً بين رمزيّتها ومباشرّيتها، وذلك في قوله مفتخراً بنفسه وقومه بخطاب موجه إلى الملك: [٤]

وكُنّا الأَيْمنينَ إذا التقينا وكان الأَيْسَرينَ بنو أَبينا

ويقصد بالأيسرين إخوانهم (بني أبيهم) وأعداءهم في الوقت نفسه البكريين. فالأيمنون في الخمر والحرب بنو تغلب، والأيسرون فيهما بنو بكر.

(١) شعر عمرو بن كلثوم/طلال حرب: ٢٤
(٢) وينظر: نصوص من الشعر العربي: ٣٧٩.٣٨٠
(٣) شعر عمرو بن كلثوم: ٣٢
(٤) م. ن: ٣٥

هذه الرمزية المكانية هي التي رجّحناها في تأويل مطوّلة زهير بن أبي سلمى[١]، ومطوّلة عنترة وكان من دواعيها ولوازمها وفهمها اكتشاف أن (عبلة) ليست حبيبة لعنترة ولكنها رمز لرجل خصم له وهو عمرو المذكور في القصيدة [٢]. كما أن هذه الرمزية المكانية هي التي رجّحت عندنا أن المقصود بـ (غبراء) في مطوّلتي طرفة بن العبد والحارث بن حلّزة هي الحرب[٣]. وهي التي رجّحت لدينا أيضاً الردّ على الأصمعي والإنكار عليه في دحضه رواية أبي عبيدة وغيره الموثّقة لبيت حاجب بن زرارة:

شتّانَ هذا والعِناقُ والنَّومْ والمَشْرَبُ الباردُ في ظِلِّ الدَّومْ

وتغييرها إلى روايته (في الظل الدَّوم) أي الدائم؛ بحجّة أن الدوم شجر ينبت بالحجاز وليس في نجد ديار حاحب بن زرارة، وإلزامه للشاعر أن يصف ما في دياره فقط دون غيرها[٤]. وهو ما أتّبعه عليه وأخذه منه ومن أبي عمرو بن العلاء قبله النقاد بعدهما والجغرافيون والبلدانيون العرب مما ذكرناه عنهم في هذا البحث.

Criticism of the place reference in the interpretation of famous poems as case study

Dr.Basim Yhiaa Qasim
Department of Arabic Language / College of Arts

Abstract

The place is an essential pillar of pre-Islamic poetry, and the many, many place names in it draw the contemplative view of it and its aesthetic, and give rise to its confusion and question about the nature of its existence and what it is; Is this presence of a purely geographical nature to show the places and homes inhabited by pre-Islamic poets or their praises, beloved or others? He also benefited from it, and the Arab geographers and countries later relied on him, and they based on him the geography of the Arab countries and the locations of the countries. Or is this presence of a poetic geography that takes a premium from the geography of a real place and takes a portion of the poetic meaning, the specificity of poetry, and considering the place in it and the subject of the poem and its occasion? Or is it from a purely symbolic poetic nature and has no basis in real geographical presence؟

(١) في بحثنا (قراءة الرّموز ـدراسة تحليلية لقصيدتين من شعر زهير بن أبي سلمى) المقبول للنشر في مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل.

(٢) ينظر: ماهية أسماء النساء: ٢١٨.٢٢٤

(٣) ينظر: جدل الشعر والنحو: ٢٠٤.٢٠٥

(٤) ينظر: م. ن: ٦١.٦٢